

ناصر قنديل

الأسبوع العاصف وكلام العواصف

ينتصر الدم الفوّار في صباح بارد على الصقيع، وأشباح الجليد بالبحر المعجدة، وصولاً إلى مزارع شبعاً عندما اكتمل المدّ والجزر وصار القمر بدرًا فصار للرجولة معنى، بين أيدي المقاومين. وبقي سحر الكلام في كلام السحر، حيث رواية بأجوج وأجوج و«الوجوه النحاس» والأيادي العابثة بالبشرية حتى يأتي ذو القرنين ويحل السلام، فهل من تشابه سحري مع هذه الأيام؟



حديث الجمعة يفقد الرومانسية هذا الأسبوع، فحتى هي ما قالت له في الحب بقدر ما قالت في الحرب والحزن والدماء. ولا رياضيات الكلام استحقها غير الشهداء. أما الصباحات التي كانت مناجاة الروح بين الضوء ونبض القلم فصارت لهم، من أطفال حمص يلبسون بياضهم لبيان سواد القلوب الحاقدة وسواد أيام آلهم في قلوبنا. إلى مواجهات بريتان والقلمون وكيف

قالت له

● عندما التقت بالصباح، قالت له: ما الفرق بين الحب والمحبة؟ فقال لها: الحب أن يكون في صباحك من يتوق كي يلقي عليك تحية الصباح وأنت نائمة، وقبل أن يفرك عينيه ويتناول رشفة القهوة الأولى. والمحبة أن يكون في حياتك من يتوقون لسماع صباح الخير منك بعد فجاجك الأول. الحب أن ترغبي بالوحدة مع خيوط الضوء الأولى، والمحبة أن تتنعمي بالكثرة في ساعات الظهيرة. في الحب لا تنتظر أن تفهم الحبيب برسائل الصباح حبنا، وهو لن يقرأها قبل ساعات، بل ننعش قلوبنا نحن بتحية الحبيب.

فقلت: وإن كان حبيبي عاشقاً للنوم ويحبني؟ فقال تسبقيني أنت بتحية الصباح وهو نائم، فالصباح يطلع ليحصى صباحاتكم ويعدّ جدولاً يومياً بالعشاق، ويرتب مواعيد نومكم لليوم الثاني على درجة غير العاشق من وقع الصباحات، حتى تبادل الأدوار، فأنا امتحانكم اليومي الذي لا تتوقف عقلته، حتى تفوز أو تنتهي نار حيك، فتصير تحية الصباح مجاملة يغلبها النعاس من كلاكما، فتأتيكما في منتصف النهار في موسم التذكر، تلك مهمة الشمس لا مهمتي. أما المحبة حيث لا مكان للغيرة والشوق، فهي تنفس متدفق موسمه عند تصالح الضوء مع حدقات العيون. أحلى الصباحات لعيونكم لتعرف من نعاس الحب ويقظة المحبة، أشعة ضوء قاسيون وبياض الياسمين، ومن مزارع شبعاً تتنفس هواء العزة وعبق الطيون والزعر.

● قالت له: ألا تشعر أننا نختلف لأبسط الأشياء. وكأن قلوبنا صارت من حديد؟ فقال لها: ألا ترين السماء سوداء؟ إن القلوب تنقبض كلما شيعت الملائكة موكبا لشهيد.

صباحات

من أطفال حمص إلى شهداء بريتان وأبطال مزارع شبعاً

● الصباح كلمة، مفردة واحدة تتحكم بمسار حياة وزمان وتحسم أمر المكان. هكذا هي المقاومة، صباح، مفردة تتحكم بمسار حياة وزمان وتحدد مفرداته وتحسم أمر المكان بالأقدام الثابتة، وتشطب الألوان الباهتة. عبوة وكفى، لا لزوم للكميات والأرقام والأعداد، هنا تحسم الرجولة وينكشف الأضداد. هل أنت صباح؟ هو السؤال إذا قاوم، قاوم الليل حتى ينجلي ويظهر خيط الضوء على يدك، وإن لم تفلح فانت عين مزيّف بطحين الرّؤان ولست من حنطة أو شعير أو ذرة. بل أنت جزء من ليل الغبار. والغبار في ليل الصحراء غبار، لكنه قد يشبه بعضاً من صباح على قدر من الاحمرار، ويبقى كالسراب شبه ماء وليس بماء، يغوي بالمسير في الدماء، الضوء شيء آخر والماء شيء آخر. نحن الضوء والماء وأنتم يا أفاعي الأرض غبار وسراب، ومزارع شبعاً والجولان وفلسطين بيننا، هاتوا ما عندكم وماكم ما لدينا. توضعاً بالسراب ما شئتكم فوضوكم فاسد، وصلوا الفجر على طلوع غباركم فصلاتكم لعنة على المساجد. بيننا وبينكم ثأر الإنسانية من يهودا ويوحنا وأخوة يعقوب ويوسف ومن تجار الهيكل وبطانة يزيد وشورى التجار. تاجر البندقية هو نفسه سيدكم، تتغير الأزمنة ولا تتغيرون. لكن ثأر الصبح من الغبار يقترّب، وثأر الماء من السراب في يثرب، تعالوا إلى النزول الأخير كما في وقعة الخندق، لكل حروبكم جاهزون، من مارون من ميسلون من قاسيون، نحيطكم علماً أننا بدأنا الزحف المقدس وأنا أتون، لو كنتم تعلمون أي مية ستموتون، للعنتم السكين التي بها اليوم تذبون، فقليل مما سيفعل بكم ما تفعلون. لو كنتم تعلمون لخفرتكم قبوركم بأيديكم وبعضكم يدفن بعضاً، فكترتكم عدد، وجيوشكم بيد، وملعوننة ذريّتكم إلى ولد الولد. لن يتظهر بغير نجاسة دمكم السلاح، ولن يطلع على غير سواد ليلى من بين أيدنا الصباح. قرار صدر... العبدة لمن اعتبر... بدأت ساعة الصفرة... والسيد رسم خطه الأحمر. ماذا سمعتم؟ السيد رسم خطه الأحمر... واعتمرو... وأشار بسبابته وصباح الشباب لبيك... الله أكبر... من شبعاً ومزارعها صباح الصباح وصباح السلاح... إلى الموصل وعين العرب... الله أكبر.

رياضيات في الكلام

● سئل المقاوم بعد مواجهة بريتان وعملية مزارع شبعاً: هل تستطيع أن تمتلك أكثر من أولوية في وقت واحد؟ يجيب المقاومون في الفكر هي واحدة وفي الواقع المواقع متعددة، فكل بلاء هو «إسرائيل» بوجه آخر، نعرف كيف نوجه البوصلة فنقلهم بلا هودة ولا نخشى الشهادة، لكننا خلقنا لنقاتل الأصل، فنذكر أنّ «إسرائيل» الأصل ولم ولن ننسى، لكن الأهم أننا جاهزون، في كل اتجاه جاهزون، في كل وقت جاهزون.

● النصر في الحرب ليس واحداً من اثنين. خريطة طريق لطبخة الملوخية توفرت عناصرها، ويمكن التحكم بمذاقها. ويضمن صاحب الدار تقديمها وجبة جاهزة على المائدة. ولا لبن عصفور ورد في بيوت الشعر وصار حلماً ووعداً لا يُطال... يتسرع الذين يفكرون من بطونهم... الحرب والنصر خريطة طريق لطبق جديد بيتنكر للمائدة من عناصر أطباق عذبة لم تكتمل عناصرها... فرضيات وتجارب وأخطاء، لكن الطبق سيكون جاهزاً وصالحاً للتقديم... ومن بيوت الشعر ولبن العصفور، فن تقديم الطبق، بإعلان العزم على الإنجاز. فبدخل صاحب المائدة ويقول لو طلبت لبن العصفور لجلبته لكم. الطباخون والشعراء يفكرون بقلوبهم... وفي الحرب كثير من أفعال القلب.

● دم شهدائنا يسقط بين يديّ الله فيزهزح كلاماً يستنهض الهمم ويشع نخوة فوق القمم، ويمدّ بالبحر القلم ويفك أسر ألف ذراع من الألم، ويطلق المباح من الكلم. لهذا، شهدائنا حبوب سنبله تجف فتملأ الوادي سنابل. يسقط منأ شهيد فزهزح ألف مقاتل. أما دماؤكم فلقاح الأرض ضدّ وطء أقدامكم الثقيل كلما نزلتم صار وجودكم مستحيلًا... هو الفرق بين الملح والزبد... حكمة تعلموها مرة للأبد.

كلام السحر وسحر الكلام

من هم يأجوج ومأجوج... وذو القرنين؟

رغم ما تذكره روايات عده عن أنه قورش ملك الفرس أو الاسكندر الأكبر. في حديث عن يأجوج ومأجوج أنهما يصلان بحيرة طبرية وهما بذلك ليسا مغولاً ولا تاتار، بل لقرب تمرکز «داعش» و«النصرة» في الجولان.

شخصية المنقذ ذي القرنين الحاكم العادل الشجاع يصفها المنذر بن ماء السماء اللخمي ملك الحيرة ببيتين من الشعر فيقول:

فما ملك العراق على المعلى
بمقدار ولا الملك الشام
أسد شاص ذي القرنين حتى
تولى عارض الملك الهمام

هو أسد في الروايات ولم لا يكون هو الأسد الذي يدافع عن الإنسانية جمعاء من بوابات الشام وحب وقاسيون؟



من كلام السحر يأتي سحر الكلام، فهل شهرزاد وشهريار حقاً بالاهتمام من يأجوج ومأجوج وذو القرنين؟ في جانب من العقل العميق بعض ما فينا تستهويه الأساطير. وبعض ما فينا تستهويه حكايات الغيب. ولأن ما فينا يؤمن بروايات الكتب السماوية وبعض السبر التي وردت فيها عن قصص الأنبياء، وسير البشرية منذ آدم، وما توحى به من القيامة والأخرة وتوقعاتهما، نجد أنفسنا مسحورين ومأخوذون بالإسقاطات.

يستهويننا الجانب الغيبى كثيراً في لحظات استثنائية مصيرية تتراحم فيها أحداث كبرى. ويتحوّل إلى جذب مغناطيسي للغوص في عمق تشابه الروايات، مع الواقع، ولا يعود المنطق العلمي يعيننا كثيراً في لحظة الدهشة. ونصير كحضور سهرة من سهرة الحكواتي يروي سيرة عنتره أو الزير المهلهل. كمثل ما تعلق بها الحكايات المكرورة التي ترد في الروايات المشتركة بين التوراة والإنجيل والقرآن، حكاية يأجوج ومأجوج والملك العادل ذي القرنين.

تلتقي التوصيفات عند وصف يأجوج ومأجوج ببشر أشداء يثيرون الرعب، يظهران للوجود فجأة ويتكاثران «ومن كل حذب ينسلون».

منطقة يأجوج ومأجوج بين السدين، وما ذهب إليه الرواة تفسيراً عن القصد بالسدين جيلان، يفترض أنّ الرواية تتحدث عن مرحلة لا سدود فيها ليستعمل النصّ مفردة السد بدلاً من الجبل، علماً أنّ رواية سد مارب سابقة تاريخياً لنزول النصّ في القرآن. المنطقة بحسب الرواية تحيطها ثلاث علامات، قريباها من بلاد فارس ووجودها بين السدين، وقوّهات النار التي افتراض المؤرّخون أنها أرض بركانية، وعلامة ثالثة هي إمكانية تواصلها مع بيت المقدس حيث يطلق يأجوج ومأجوج سهامهما نحو السماء.

وجها يأجوج ومأجوج كالتروس النحاسية، وشكلهما غريب وطبيعتهما دموية، ويخرجان من بعد انحباس ليس بالضرورة أن يكون مكانياً كما ليست فوهات النار بالضرورة بركانية، بل آبار نطف، والسدان ربما كانا الموصل والرقّة، ويأجوج ومأجوج «داعش» و«النصرة»، ويأتي ذو القرنين وهو ملك عادل، تقف معه الأمام بعدما حاربه ووقف ضده وتعرض عليه أموالاً ليقاتل يأجوج ومأجوج، وهو نزيه ومستقيم ومحب للناس يقولون أنه عربي من أصول يمنية. غالبية العرب طبعاً من أصول يمنية، على

● في عين الشمس يطلع الصباح بارداً، هناك حيث كان الدم ضرورة وقود التدفئة، وهناك حيث سماها الإغريق عين الشمس. كان خيالاً عين الشمس جاهزون، يرسمون الصباح بفوهات بنادق وقرار شهادة عنوانه، سنسحقون يعني سنسحقون، لو جئتم عشرة سنسحقون، ولو جئتم مئة سنسحقون، ولو كنتم ألفا سنسحقون، فتعالوا كترًا ما استطعتم وأريحونا منكم فترتاح الدنيا وترتاحون، أما نحن... فإن كنتم عشرة... فدائيون، كنتم ألفاً... فدائيون، فعيوننا للشمس مندورة ودمنا ملح أرض، لن تنعموا برائحة ترابها، طعماً لو حوشها ستيقون، ومهما حلمتم أنكم تحت أديمها سدفنون، فأنتم هواء أصفر راحل أنتم الطاعون، لذلك توزعت من طهر دمانا لقاحات ضد الوباء من بريتان وعرسال إلى معربون، وبقيت خميرة الدواء نسخة في مارون ونسخة في قاسيون، كلما زحف جرادكم أتون إليكم كقفير نحل مجنون أتون... لماذا؟ لأن قدركم في كتب السماء وقوانين الأرض أنكم سنسحقون، كفرة وطقلة بردة صرصور تحت نعل حذاء ثقيل سنسحقون... فتمنعوا وتنعموا وودعوا حمل أمهاتكم لكم وليالي فجركم والجواري والسبايا وتعالوا... لماذا؟ لملاقاة ما سيكون في انتظاركم وإن لم تاتوا فنحن أتون، لأنها الساعة آتية لا ريب فيها ولن تأتي الساعة إلا إذا نادى المنادي يا ذباب الجيفة والنتن تعالوا، فرداً فرداً أو زرافات تعالوا سنسحقون... صباحاتنا من عين الشمس قطافنا، كعناقيد كرمة طازجة يكالها الندى كما تكل ترابها تكلت بدمائنا

وكتبت بحر الأيادي سنسحقون... ذلك وعدنا الميمون حتى تاتوا لتسحقوا وإلا فنحن أتون وفي كل حال سنسحقون... في المساء في الصباح سنسحقون... ببريق باتجاه الرياح سنسحقون... ببريق السلاح سنسحقون... في كل صباح أحلى صباح... من عين الشمس يطلع الصباح وتستنقر الحدقات في العيون بلمعة العين ووعد الحردين... وصية شهيد موقعة بريتان.

● لم تخلق لكاننا ونحن متمسكون بها كأرواحنا ونراها أجمل صبية... أما أنتم قتلعيون بها آخر رسيد لعبة قماركم ولا ترونها إلا سبية... لذلك قرارنا أننا سنسترددها وسننتزعها من ضوء عيونكم... خذوا بقايا حدقاتكم من زجاج وارحلوا... نحن الثابتون

